لمحاربة المرض والفقر والجهل :

إلى القرية ... ياشباب

للأستاذ على الطنطاوى

لما كنت موظفا (فى بغداد) كنت أجلس كل عشية على سطح منزلنا فى (الأعظمية) أشرف على الحقول التى تمتد إلى غير ما حدّ ، أرقب الشمس وهى ترجع إلى خدرها ، والفلاحين وهم يؤوبون إلى منازلهم فى خط طويل متسلسل كأنه نهر جار ، نهر يجرى منذ عصور مديدة لا يقف ولا ينقطع ولا يبلغ مصبّه ، يسوقون دوابهم التى أنهكها العمل ، وأضناها الكد ، كما أضنى أصحابها الشغل المتواصل فى الحقول ، الشغل السرمدىّ الذى يبدأ مع الفلاح حين تبدأ حياته ، ولا ينتهى حتى تنتهى ، يشتغلون وهم أطفال ، ويشتغلون وهم شباب ، ويشتغلون وهم شيوخ ، لا يستريحون ولا ينالون على تعبهم إلا لقمة من خبز الشعير ...

فيالروعة الواقع !

هؤلاء الذين يشتغلون هم ونساؤهم وأطفالهم ودوابهم ليقدموا للناس القمح لا يأكلون خبز القمح! هؤلاء الذين يرفعون عماد الدولة لا تدرى بهم الدولة ، ولا تهتم بهم ! هؤلاء الذين يملأون بالذهب صناديق السادة الكسالى يحتقرهم السادة ، ولا يدعون فى جيوبهم قرشاً يشترون به ثوبا نظيفا لطفلهم الذى يتبع طفل السيد ، كأنه الكلب الجائع يسأله قطعة من (العيش) الأبيض الذى يزرعه أبوه هو ، فلا يعطيه إلا الحجر الذى يرجمه به ، إنه يستنكف عن أن يمسه بيده الناعمة الرخصة البنان ...

كنت أرى ذلك فيذهب بى الفكر إلى عشرات من المشاهد رأيتها فى قرى الشام وفيما زرت من قرى مصر ...

يذهب بى الفكر إلى حوران يوم زرت رفيقاً لى كان معلماً فى إحدى قراها ، فرأيته يسكن عند الفلاح فى داره المبنيّة من الأحجار السود المكدسات ، بعضها فوق بعض ، لا يمسكها أسمنت ولا طين ، ولا يدرى الساكن تحتها متى تهبط عليه فتردية قتيلا . وفى هذه الدار غرف متعددات ، فى الأولى البقر ، وفى الثانية الحمير ، وفى الثالثة الخرفان ، وفى الرابعة الفلاح وأسرته يعيشون كما تعيش تلك البهائم ... ولقد أمسكت بأنفى لما دخلت الغرفة ... لأن الرائحة كادت تقتلنى : رائحة الدواب التى تأتى من هناك ، ورائحة (الجلّة ...) التى يوقدونها فى وسط الغرفة فى حفرة حفروها فيها ، لأنهم لا يملكون ثمن الحطب ولا الوقد ولكنى صبرت وولجت متوكلا على الله . ولما صافحنى الفلاح بيده المتشققة الخشنة شعرت كأنى ألمس مبرداً ، ولكنى صبرت (أيضا) لعلمى بأن هذه اليد الخشنة هى التى تقدم إلى الخبز الذى أعيش به ، والمال الذى آخذ منه راتبى ، وأشترى منه هذه الثياب التى أفتخر بها على الفلاح ، وأخشى أن يدنسها بينه . ثم رأيت أطفاله وأردت نفسى على مداعبتهم ، فإذا هم يحملون الأقذار على ثيابهم ، والذباب على أفواههم ، والقذى فى عيونهم ، والمرض فى أجسامهم ، وليس فى القرية طبيب ، وليس فيها دائرة صحة ، وليس عند الفلاح مال ، وليس عنده علم . إن السادة الذين أخذوا ماله وثمرة كدّه لم يعلموه ، ولم يعطوه أجرة الطبيب ... ثم جاء الفلاح بالأكل وأعقبه بالشاى ، وإنى أعفى القارئ من وصف هذا الأكل وهذا الشاى ... أخشى أن يصيبه النشيان !

ويعود بى الفكر إلى حوران ، وقد زرت تلك القرية مرة ثانية ، وكان ذلك فى وقت الحصاد ، يوم حق للفلاح أن يتمتع بتعبه بعد سعى موسم كامل ، يوم نال مكافأته على هذا التعب الطويل ، والشغل المضنى ، فإذا الدائنون المرابون والجابى ، ينتظرون على باب المنزل . فلما رجع الفلاح إلى منزله هاشاً باشاً مبتسما ، يحمل المال الذى حصل عليه بجدّ يمينه وعرق جبينه ، اعترضوا طريقه قبل أن يصل إلى أولاده ، فأخذوا المال كله فلم يف بالذى يطلبونه وبقى عليه للحكومة أربع وثلاثون ليرة ...

يا للقانون ! يا لحق الحزينة ...

يا أيها الجابى شدّ ركابك ! يا أيها الجندى أعدّ سوطك وسلاحك ! يا أيها الناس أقيموا القيامة على هذا اللص الذى أكل أموال الدولة ...

حلّ البلاء بساحة الفلاح المسكين ، ونزل عليه جنود الترك يقيمون حتى يؤدى المال ، يتشهون عليه المآكل ، ولا يرضون بغير الدجاج والخرفان ، وهم فى بيوتهم لا يأكلون إلا الزيتون

والجبن ، ويأخذون شعيره ليطعموه دوابهم ويضربون وجهه وظهره ... إنهم يطلبون بقية الضريبة ...

ولكن لم يبق عنده شيء .

إذن فلتبع أمتعته .

ولم يجدوا عنده إلا الفراش القذر ، واللحاف الخلق ، والبساط المخرق ، والقدر الأسود ، فباعوها بالمزاد العلني وتركوه على الأرض .

ولما رجع الجباة كلهم إلى العاصمة ... وجموا ماملأ الخزانة تبسم ولي الأمر ، وقال لأعوانه :

— لقد اجتمع مال يكفي السنة كلها ، وإننا لا نستطيع أن نرد هاتيك الوسائط كلها والشفاعات ، فأعدوا مرسوما بإعفاء فلان بك من الضرائب المتراكمة عليه من سبع سنين ، وهي تسعة وعشرون ألف ليرة وسبعة وخمسون قرشاً ...

أعفوه ، ولكن تسعة عشر ألف فلاح صاروا ينامون على الأرض ، لم يبق لهم فراش !

* * *

كنت أذكر ذلك وأنا أنظر إلى خط الفلاحين الذين يعودون إلى دورهم ، وقد غاب أوله خلال الظلام ، فأفكر في هؤلاء الفلاحين إلى متى يعشون ؟ أما لمشاهم نهاية ؟ أما لطريقهم آخر ؟ أكتب عليهم أن يشاركوا البقر والحمير في عملهم وطعامهم وسكناهم ؟ أكان لزاما عليهم أن يعملوا أبداً ليستريح الـ (بك) أو (الباشا) ؟ ويجوعوا ليأكل ؟ ويفنوا جسومهم ونفوسهم ليأخذ هو الذهب فينفقه على موائد الخمور ومجالس الفجور ؟

أيبقى هؤلاء الناس جاهلين ، يعيشون بمعزل عن الحياة ، يترفع الشاب المتعلم عن الجلوس إليهم ومصافحتهم والسلام عليهم ، وإذا بعثوه ليكون معلماً لهم ، أو موظفاً فيهم ، أقام الأرض وأقعدها ولم يدع وسيلة للتخلص من هذا (النفي) إلا توسل بها ؟

إن الفلاحين في بلاد العرب ، هم جمهرة السكان ، هم حياة البلاد ، هم الشعب ، فإلى متى يبقون محرومين من العلم والصحة والنظافة والإنصاف والمدنية ؟

فكروا في هذا أيها الشباب ...

يا أيها الشباب الذين يعرفون القرية ومعيشتها وحالة أهلها ...

يا أيها الشباب الذين يحبون بلادهم ، ويريدون صلاحها ...

إن الشاب النافع هو الذي يخدم ويعمل ويدع أثراً صالحا ، أما صاحب الجعجعة والكلام الفارغ فلا ينفع أحداً ، إن ميدان القرية أحوج الميادين إلى هم الشباب ، وذكائهم ، ومعرفتهم ونشاطهم ، لا أريد أن يترك الطلاب مدارسهم ليزرعوا الأرض ، ويعيشوا في الحقل ، ولكن أريد أن يفكروا بمثل (مشروع إنعاش القرى) الذي قام به في صيف سنة ١٩٣٣ نفر من طلاب الكلية الأميركية في بيروت ، فانتخبوا من المتطوعين للعمل في القرية فريقاً بحثوا أسبوعا في (مؤتمر) عقدوه ، ودرسوا أحوال القرية اللبنانية ، وعرفوا داءها ، وفتشوا عن دوائها ، وكان يعاونهم بعض الأساتذة والخبراء الفنيين ، ثم ألفوا أربع بعثات وأرسلوها إلى القرى ، فدرست الحال عن كثب ، ورأت أن العمل في قرية واحدة يقيمون فيها الصيف كله أسهل وأنفع ، وأنه يجب على أعضاء البعثة أن يحملوا خياما يبيتون فيها ، وطعاماً لهم وشرابا ، ليخففوا عن الفلاح ولا يرزؤوه شيئاً ، وليروه لونا من الحياة جديداً ويحببوه إليه ، وكان من أهم أغراض أصحاب ذلك المشروع :

١ — الصحة ، فيكون في البعثة الصحية قسم للدرس والإحصاء والتعليم ، وقسم للتطبيب .

٢ — النظافة ، بتعليم الناس ومحاضرتهم ، وبالعمل على إصلاح مجاري المـــاء الطيب والخبيث ، وتنظيف الطرق وتجفيف البرك .

٣ — الزراعة ، بإرشاد الفلاح إلى طرقها الجديدة ، وآلاتها الحديثة ، وأصول مكافحة الحشرات والأمراض .

٤ — تعليم الأميين من الفلاحين ، والعمل على إنشاء المدارس لأولادهم .

* * *

إننا اليوم على أبواب العطلة الصيفية ، وسيبقى أكثر الطلاب في المدن ، يرتادون القهوات ، ويؤمون السينمات ، ولا ينفعون خلالها ولا ينتفعون . فهل يعمل فريق من الطلاب في كل بلد على (إنعاش القرى) على نحو ما ذكرنا ، فيكون لهم من ذلك صحة في أجسامهم ، وقوة في نفوسهم ، وخبرة ببلادهم ، وخدمة